



◆ الحكيم محمد بن زرقة طبيب وجراح جيوش الأمير عبد القادر

أ.د. جيلالي صاري

ملخص:

إن شخصية الحكيم بن زرقة محمد بن زرقة في ميدان الطب والجراحة شخصية فذة لها قدرات ومهارات في المعالجة، جعلت أعداءه وخصومه يعترفون به، كما جاء في الجريدة الطبية La Gazette المنشورة في باريس من 7 إلى 13 فيفري 1864. كما أن الأمير عبد القادر وحتى في الأوقات العصيبة كان يجعله من المقربين والمحظين لديه.

Résumé:

La notariété de ce praticien a été reconnue par ses adversaires en reconnaissant ses mérites, voire parfois l'avantage sur leur propre art de guerir comme le souligne bien la notice publiée par la Gazette Médicale de Paris du 7 au 13 février 1846(1). De plus, durant les moments les plus difficiles, l'Emir Abdelkader ne privait point son praticien, en le comblant de faveur et de biens.

شخصية فذة

بالرغم من قلة المعطيات، ومما لا ريب فيه، نحن أمام شخصية إستثنائية، وهذا باعتراف الأعداء المباشرين، أي الضباط الذين جمعوا المعلومات والشهادات الدقيقة



والذين لم يقتصروا في وصفهم على مدحه، مركزين على أخلاقه الحميدة والغير العادية إطلاقاً، وكذا على مهارته والهامة حتى في الحالات الصعبة وهم يعتمدون على حجج قاطعة.

وما هذا الإعتراف المطلق من طرف العدو إلا تأكيد وتثبيت للعلاقات المتبينة التي ربطت الأمير عبد القادر بالحكيم إذ تواصل عطاء الأول للثاني في جميع الظروف وحتى أثناء إنعدام العمل والزاد في الأوساط المقربة لمؤسس الدولة الجزائرية كما جاء في الوثيقة حرفياً وبكل وضوح.

وعلى كل فإن مثل هذه الإعترافات ليست بالمفاجأة لأنها تتماشى والواقع، واقع الحكيم وسطه، أثناء وبعد مهمته النبيلة، إذ أن هذه الشخصية الفذة قد واصلت العلاج يوماً بكل إخلاص وثبات، وغالباً بدون مقابل ولا تقصير كلما تطلبت الضرورة ذلك.

هذا وقبل تسليط الأضواء على مهنته ومهارته، لا بد من إشارة وجيزة لسيرته وأخلاقه النبيلة وفي الواقع كل ما يندرج في هذا الإطار إلا وهو صورة واضحة لما كتب وسجل حول الشخصيات التاريخية وبالأخص بهذه المدينة لما جاء ذلك في شهادات (2) G. Marçais في مطلع هذا القرن أي أكثر من نصف قرن من حياة الحكيم.

وعليه فإن الحكيم محمد بن زرقة ولد في بداية القرن الماضي بأحد الأحياء العتيقة بتلمسان وبالضبط بالقرب من مسجد سيدي إبراهيم (3) في منزل متواضع ترعرع فيه وقد إستقر به بعد مواصلة مهامه أثناء المقاومة المسلحة، وما هذا المنزل المضياف إلا صورة مصغرة وشاهد لتحقيقاته أي ما أنشأ بنفسه إذ توجد فيه سلسلة من الأسلحة والغنائم وهي مبسطة ومتمثلة في بنادق طويلة ومسدسات متنوعة، وخناجر مزخرفة، وإلى جانب ذلك تشاهد مجموعة رفوف مملوءة بالقرورات ومن مختلف الشكل وهي تمثل صيدلة الحكيم، وكما جاء في الوثيقة فإن كل هذه الأدوات إلا وهي من صنع الحكيم من إلهامه ومهارته، وكل هذا الفن والإتقان إلا وقد فاجأ ضباط الجيش الفرنسي أنفسهم.



الممتحن العاهر

زيادة عن ما سبق، فإن المقارنة التالية لتعزز المكانة العالية لمثل هذه الشخصية الفذة والتي نحن بصدد تحليلها، كيف لا وقد قورنت بشخصيتين بارزتين في التاريخ الفرنسي منذ النهضة الأوروبية إلى فجر نشأة الطب الحديث، وحينئذ مثل هذه المقارنة لتؤكد من جديد المرتبة الحقيقية التي بلغها الحكيم والجراح للجيش الجزائرية أثناء دولة الأمير عبد القادر، وهذا كله ومن دون شك بفضل إمكانياته الشخصية الهامة وإبتكاراته.

وعلى كل فإن المقارنة قد إستهلّت المقال وجاءت مباشرة في الجملة الأولى وبالضبط في السطر الثاني وفي أسلوب الإعجاب والسعادة وحتى... الترحيب إن لم نقل التأخي وبالتالي التكريم إعترافا بالجميل والتقدير، خاصة وأن مكانة الحكيم بعد نهاية مهامه أصبحت تدعو إلى القلق كما يتضح ذلك فيما بعد.

وعليه فإن المقاومة قد إختصت كلا من:

– Ambroise Paré (1509-1590) وقد كان جراحا لأربعة ملوك بفرنسا على التوالي كما أنه يعتبر من رواد الجراحة الحديثة آنذاك.

– والبارون Dominique Larrey (1766-1842) ومثل هذه الشخصية لا تبرز إلا بذكر ما يأتي والذي لا يحتاج إلى أي تعليق فقد كان جراحا «للجيش الأعظم» (La Grande Armée) التابع للإمبراطور نابليون الأول وكذلك وجراح هذا الأخير وقد رافقه دائما أثناء جميع حملاته عبر أوروبا...

وأما المعلومات التالية والخاصة بخبرة الحكيم محمد بن زرقعة، وإن كانت محدودة وعامة، فإنها لصورة واضحة لأنشطته المهنية والإنسانية في آن واحد، وفي الواقع إنها تقتصر على شهادات محدودة قد جمعها صاحب الوثيقة وبالتالي نقلها فقط عما سمع ويبدو أنه ليس بمختص...

ومهما يمكن من أمر فإن هذه الخبرة والمهارة والممارسة تلمس حول المحاور التالية: التحكم في التانيات التقليدية، التحكم في صنع الأدوات الطبية، وكذلك التحكم في

تحضير الأوبية وضعها زيادة عن بعض الإبداعات والممارسات الإستثنائية في الحالات الإستعجالية والإستثنائية كما يتجلى ذلك في أمثلة وردت في الوثيقة، ومما يعزز كل ذلك هو الإعتراف بالنجاح الذي توصل إليه الحكيم حينما عالج حالات وقد فشل فيها الضباط الفرنسيين أنفسهم، وكذلك حينما عالج أحد المرضى وظن الجراحون الفرنسيون أنه سيموت لا محالة.

وأمام مثل هذه المعطيات ومثل هذه النتائج فإن الملاحظ التزيه لا يفاجأ كثيرا لأنه قد إقتنع بما توصل إليه حكيم جزائري آخر مارس الطب خلال النصف الأول من هذا القرن وقد استشير عدة مرات من طرف الضباط الفرنسيين التابعين للمستشفى العسكري بمدينة تلمسان وهو الحكيم محمد نقاش(4) الذي ناقشه الدكتور بباريس سنة 1880 ويعد من دون شك من الأوائل وربما الأول من الجزائريين وحتى الأوائل بالنسبة للقارة الإفريقية والبلدان العربية حسبما توصلنا إليه من الأبحاث في العاصمة الفرنسية لتلك الفترة...(5).

وفي الأخير لا يفوتنا الإستشهاد بمهمة الأطباء الجراحين الفيتناميين أثناء حربهم التحريرية وهذا باعتراف وشهادة نفس الطرف الفرنسي، إذ جاء في آخر عدد المجلة الباريسية L'histoire (6) عدة أمثلة توضح الظروف التي تواصلت فيها المهمة، تلك الظروف التي تكاد ألا تصدقها حتى الأوساط العلمية إلا أن المقالة قد حررتها باحثتان مختصتان بالموضوع نفسه وهما Anne Marie Moulin و Annick Guenel، ومن بين هذه الأمثلة نذكر مهمة الحكيم Ton That Tung المحصل على دكتوراه في سنة 1937 والذي التحق بالكفاح المسلح ابتداء من سنة 1946 بجوار هانوي وقد شارك حتى في معركة ديان بيان فو الشهيرة(7)، وقد اضطر هذا الحكيم أن يواصل الجراحة في ظروف الإنعدام بحيث أنه كان يستشير بواسطة نور الدراجة وكانت خيوط الجراحة المستعملة تهيأ من بقايا أقمشة المظلات، ويرجع الفضل لهذا الطبيب في تكوين كل جيل الجراحين إبان الإستقلال كما أنه قد نال شهرة عالمية بعد أعماله الخاصة بالأوعية الدموية للكبد(8).



الخلاصة

وهكذا فإن المصدر الذي حللناه لا يخلو من أهمية بالغة وإذ كان يقتصر على معلومات محدودة وعامة غالبا، لا يستطيع أن يكشف سرها ووزنها الثقيل إلا الملاحظ المتيقن، وبالفعل كل من يسعى إلا ويتمكن أن يكتشف شخصية فذة قد لعبت دورا بارزا، بل مصيريا أثناء وبعد المقاومة المسلحة للأمير عبد القادر، إنها لشخصية الحكيم محمد بن زرقه الذي سهر على صحة كل من الأمير عبد القادر وجيوشه، فقد عالج الجميع وهو لا يدخر جهدا من أجل سلامة وراحة الجميع، وهذا بشهادة من لاحظوا ذلك وهم ضباط العدو... وبالتالي فإن الشهادة تقتصر فقط على لمحة معينة ولا تستطيع بأية حال من الأحوال أن تغطي مهمة إستغرقت سنوات طوال أثناء وبعد المقاومة المسلحة.

وعليه لا بد من مواصلة البحث في هذا المجال الذي ظل غامضا كل الغموض، لا بد من مصادر أخرى لتسليط الأضواء على الجوانب المختلفة وبالأخص التي لم تستقطب أنظار أصحاب الشهادة التي قدمناها، وتلك هي مهمة البحث والتحليل.

وأخيرا ونظرا إلى مكانة وسمعة هذه الشخصية الفذة، فإنه لمن الضروري أن نحفظ باسم هذه الشخصية وأن يطلق إسم الحكيم محمد بن زرقه على المنزل الذي ترعرع فيه وكذلك على بعض المؤسسات الصحية وحتى على بعض المصحات والمعاهد الطبية في أقرب الآجال، عرفانا للمهمة النبيلة، ومساهمة لكتابة التاريخ وبالتالي كذلك لمكافحة النسيان والجهل... وأحيانا التجاهل.



المراجع

- (1) - Lettre d'Afrique parue dans la Gazette Médicale de Paris, du 7 au 13 février 1846. وقد تم تحرير المقالة بمدينة تلمسان بتاريخ 1846/11/05، ص 126-121.
- (2) - Marçais Georges, Tlemecen, ville d'art, Paris, 1950.
- (3) - وإن كان المنزل الذي عاش فيه الحكيم قد بني في مكانه عمارة أخرى ذات طابق واحد قد غيرت هندسته فإنه لمن المعمول به في معظم البلدان المتقدمة أن توضع لوحة يكتب فيها إسم الحكيم ووظيفته تخليدا لمهمته النبيلة.
- (4) - Sari Djillali, L'un des premiers et brillants médecins le Dr Mohamed Nekkach, les Cahiers de Tunisie, Tunis 1989, t XXXVIII, no 148-149, p. 225-231.
- (5) - لقد نشرت جريدة المجاهد اليومية بتاريخ 30-05-87 ملخصا حول هذه الشخصية وهو ملخص لوكالة الأنباء الجزائرية بعد المحاضرة التي قدمناها حول الموضوع بمدينة مسقط رأس الحكيم محمد بن زرقة.
- (6) - Revue l'Histoire, Paris, Octobre 1996, no 203, p. 36-37.
- (7) - Annick Guennel et Anne Marie Moulin (1996), Des médecins dans la jungle, histoire, no 203, p. 37.
- (8) - لقد توقع ذلك الأخصائي بعلم الطفيليات الفرنسي وهو الحكيم Emile Brumpt حينما ترأس لجنة مناقشة بهانوي في سنة 1935 وكان يتنبأ إكتشافات من طرف الفيتناميين في مستوى اليابانيين.



- (10) - Ibid, p. 17.
- (11) - G. Feraud, "L'élément Persan dans les textes Nautiques arabes: Journal Asiatic (1924), pp. 193-257.
- (12) - G.F. Hourani, Arab Seafaring, Princeton, 1951, pp. 65-66.
- (13) - G.R. Tibbets, "Early Muslim Traders in South Asia", Journal of the Malayan Branch of the Royal Asiatic Society (1957), p. 8.
- (14) - Al-Masudi, Muruj, Tome 1, p. 5.
- (15) - S.M. Ahmad, "Al-Masudi, Contribution to the Medieval Arab Geography" Islamic Culture (1954) pp. 275-286, pp. 509. 254 vol. 1953, pp. 61-77.
- (16) - Al-Idrissi, Nuzhet al-Mushtak fi-Iktirag al-Afaq; (The Recreation for him who wishes to travel through the countries), Ed. by Dozy and M.J. de Goeje, under the French title: Description de l'Afrique et de l'Espagne.
- (17) - G.R. Tibbets, "Early Muslim Traders in South Asia", Journal of the Malayan Branch of the Royal Asiatic Society (1957), p. 24.
- (18) - Ibn-Battuta, Rihlet ibn-Battuta "Travels of Ibn-Battuta", A.D. 1325-1354, In 3 vols. Translated by H.A.R. Gibb, Cambridge 1958.
- (19) - H.G. Rawhison, "Traveller of Islam", Islamic Culture (1931), pp. 29-37.
- (20) - Ibn-Battuta, Travels of Ibn-Battuta, vol III, p. 490.
- (21) - Ibid, pp. 415-416.
- (22) - Ibid, p. 491.
- (23) - F. Gabriel, Relations de voyages, vol 1, p. 1.